اسلوبية التوظيف النفسي للأوامر العبادية في القرآن الكريم

أ.م.د. صباح عيدان حمود

الموبايل: 07709013654

الايميل : Ssaabbaahh75@gmail.com

كلية التربية – جامعة ميسان

مقدمة

يهدف كل خطاب في اسلوبه وبيانه لتحقيق مقاصد مبدعه ، وهو في كل مستوياته له قصدية التأثير على المتلقي لينفعل به ، ويثير فيه مكامن تلك المقاصد؛ ويحرك النفس المتلقية التي هي مجموعة ((القوى الكامنة في الجسم الانساني، والتي هي مجمع عواطف الخير ونوازع الشر، ومستقرُّ الغرائز والنزعات والعواطف والشهوات المحركة لهذا الجسم المادي في تصرّفه واتجاهاته))[1]. وهي تحتاج الى مثيرات مختلفة لتنفعل بها وتوجهها نحو مراد القاصد الذي يريد أن يكون موجهاً لها.

وقد توجهت الدراسات اللغوية الحديثة ولا سيما البحث الاسلوبي الى البحث اللغوي النفسي وإصدار قوانين عامة لتفسير السلوك الإنساني تجاه العبارات اللغوية المنطوقة [2]، فاتجهت الى بيان((ما يربط الجهاز العصبي والجهاز النطقي كما يعمل على كيفية تحويل المتحدث للاستجابة الى رموز لغوية)) [3]. وتحتاج النفس الانسانية في وجودها وفي جميع مستوياتها العقلية الى مثيرات داخلية، تحركها الى انماط من السلوك الفعلي او العاطفي، وهو ما يجعلنا نتمسك بتعريف الدلالة النفسية التي عرفت بأنها ((تلك الملامح والاشارات التي تنعكس على النفس الانسانية؛ فتُحدث فيها استجابة معينة، سواء أ كانت لفظية أم حركية، إرادية أم غير أرادية))[4] وتُعّد اسلوبية الخطاب ونسقه في زمان ابداعه ومكان ولادته ، من المؤثرات النفسية المهمة ؛ لذا ينبغي لهذا الخطاب أن يمتلك القدرة الاسلوبية على تثوير انفعالات النفس وتوجيهها في مسارات محددة، وتوظيفها في معرفة النمط السلوكي الذي ينبغي عيلها أتباعه.[5]

والأسلوبية النفسية على وفق تعاملها مع النص البشري ، ترى أن الأسلوب ((قادر على إدراك كلّ ما يتضمّنه فعل الكلام من أساليب أصليّة تتوفر على عناصر الفرادة أوجدتها طاقة خلاقة منبثقة من نفس مبدعه وتفرّده في الإلقاء وقدرته على القول وتمكنه من التعبير))[6]، فهي بهذا المعنى تمثل دراسة السيرة الذاتية للمبدع، ولكي تترك الأثر النفسي في أذهان المتلقي لخطاباتها وتوظّف هذا الارتباط والمقامات التي

حصلت عليها توظيفاً حسياً ونفسياً؛ لينفعل بها المخاطَب في كلّ زمان ومكان ، وتُحيل الاستجابة لقدرته على معرفة الحقائق، فكل حدث يحدثه النص يكون اثره في النفس الانسانية، والذي لا شك فيه ان هذا إنما ينطبق على الخطابات البشرية التي يُراد منها اثارة النفس القريبة منها في التكوين والخلقة. وقد تكون هذه المثيرات نافعة ومؤثرة ، وقد لا تكون كذلك.

أما نحن في هذه الدراسة أمام نص فريد لمبدع متفرد في ابداعه وخلقه للنص ومتلقي النص، فالنص القرآني نص سخّره مبدعه مستهدفاً المتلقي في جميع مستوياته، ليكون طريق هداية ، يهدي به من يشاء من عباده، وهو كذلك هدى للمتقين، هذا من جهة، ومن جهة آخرى فهو يهدي للتي هي أقوم ، وهو كذلك حريص على أن ينظّم علاقة المتلقي بالمبدع، وتعاملاتهم فيما بينهم، وذلك في منظومة خطابية متكاملة استعوبت جميع مكامن الابداع ، وقوة الاثارة ، فاستعملت اللغة في جميع مستوياتها التواصلية والابلاغية أثناء الكلام وبعده، محاولة توظيف نفس المتلقي بوساطة فن الخطاب ونوع الاوامر، لتتقبل النص وملازماته وعن طريق ما اسميناه بالتوظيف النفسي، الذي يعني في بعض تعريفاته: ((مجموعة الانفعالات التي تؤثر في النفس، وتسيطر على القوى الشعورية عند الانسان، فهي وظيفة داخلية تسرح مع أعماقه وتمتلك عليه عواطفه... وتقفز الى سريرته فتعالج آمالها ومخاوفها، وتصور بأسها ورجاءها، تدعو الى الانذار تارة ، والى التبشير تارة أخرى، والى التحذير ثالثة))[7] . وفي ضوء هذا التعريف ؛ يمكننا ان ننطلق لبيان كيفية إثارة هذه الانفعالات عن طريق النص، الذي طوى في حروفه ومفرداته معالم تنظيم هذه العواطف، وقد تمّ ذلك عن طريق وضع منظومة عبادية متكاملة تجمع بين التكامل البدني والتكامل الروحي، جاءت مسبوكة على شكل دفعات منتظمة ومتدرجة من الأوامر والنواهي، مشحونة بقيم نفسية تجمع بين الترغيب في تحسين الصِّلة بين العبد وربه من جهة، والترهيب من مخالفة الانضباط من جهة أخرى؛ وذلك عن طرق الوعد في الحصول على الأجر والثواب ، أو الوعيد بايقاع العقاب ، وكلاهما عاملان مهمان في تحريك النفس الانسانية وتوجيهها الى مآل صاحبها بعد الحياة الى حياة اخرى، تكون فيها ابدية وسرمدية في مرحلتين غيبيتين، حتمية تحققهما أثبتتها تجارب البشر وهو الموت وترك دنيا فانية والايمان بوجود آخرة خالدة.

من هنا رأى الباحث أن يتابع هذه المنظومة العبادية في النص القرآني ويقرأها قراءة اسلوبية على وفق السياق الذي قيل فيه النص، وبيان الوظيفة النفسية لهذه الاوامر واثرها في المتلقي، وبيان مدى نوع الاستجابة ودرجاتها من أجل أن يكون الخطاب مكتملاً بين المبدع والمتلقي. وهو ما قصده الباحث هنا من مصطلح اسلوبية التوظيف النفسي، فالنفسيون ينظرون الى أن قراءة الاسلوب نفسياً من أهداف فهم النص، والقراءة النفسية تُعمّق فهمنا للعمل الابداعي.[8] فالتوظيف النفسي الذي يقصده البحث هنا : هو عملية التأثير بين ما

يقوله منشئ الخطاب – بما يحمل من لغة نفسية مؤثرة – وما يولّده من ردة فعل عند المتلقي. ((فإن الظواهر النفسية لا تعدو ان تكون قوى خفيّة داخل الانسان تعمل على تحريك ظاهره؛ لكي يتّخذ سلوكاً معيناً يتناسب مع الباعث الداخلي))[9] ، وهذا الباعث يحتاج الى ما يثيره؛ فتكون((الاستجابة حيال مثير معيّن))[10]. وتتربع اللغة وما يلازمها من سياقات وتداوليات على قمة هذه الأثارات ، فهي القادرة على حمل جميع المثيرات ونظمها في نسق اسلوبي مؤثر.

والخطاب القرآني الذي جاء بأفصح لغة و بما يحمل من افق الهداية واستشراف المستقبل؛ كان سبباً مهماً في توظيف النفس الانسانية وإثارتها وتحريكها في اتجاهات الهداية والصلاح، وبيان معالم الحق وتهيئة الانسان لمواجهة الصعاب والصبر عليها، لينفعل بها وبمعالمها الرئيسة؛ ليكون المتلقي المنفعل بهذا الخطاب سبباً لحيوية تحركه الى أتجاهين:

الأول :الحركة الطولية بين العبد وربه، و تمثل ما اوجب عليه من تفاعلات تربطه مباشرة مع خالقه والمحافظة على ديمومتها. (العبادات)

الثاني: الحركة الأفقية وهي التي تنظيم علاقة الانسان مع أبناء صنفه وجنسه، وما يحيط به من الموجودات .(المعاملات)

وإن المتدبّر في خطابات القرآن التي خاطب بها الناس جماعاتٍ وافراداً؛ يكتشفُ فيها أنها تسير في تشخيص حاجة العباد الى هذا النظام العبادي والعملي، الذي يعرف نقاط ضعفها، ويضع اليد على مكامن قوتها، ومنها يقوّي التعريف بالعلّة التي خلق الله من أجلها الأنسان وهي العبادة (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[11] وهذه العبادة لا يمكن أن تكون عشوائية أو غير مقصودة ؛ بل هي منهج ممتزج بين الفطرة والعلم والمعرفة ، ولها علاقة بقدرة المكلف بها.

وبيّن البحث مدى قدرة هذه الخطابات على اثارة النفوس التي تلقتها، كما أنه كان خطاباً مميزاً في توجيه النفس الانسانية بالقبول بالعبادة ، وما زالت تتلقاها وتنفعل بها. وجاء على مباحث ثلاثة مرتبة ترتيباً اقتضته درجات التأثير التي ينفعل معها المتلقي، وقوة الأسلوب وطريقة بنائه الفني والسياقي.

وفي حدود اطلاع الباحث ان التوظيف اللغوي للنفس الانسانية المتلقية للنص، لم ينل اهتماماً واضحاً ، على العكس من تسليط الضوء على معرفة نفسية المبدع والمنشيء للنص ، فربما يُعدّ هذا محاولة لإكمال مسيرةٍ لم نتعرف عليها بعد، او تحقق سبقاً لغوياً في مجالات الدراسات الاسلوبية النفسية، والله ولي التوفيق.

الكلمات المفتاحية : الاسلوبية ، التوظيف النفسي ، الاوامر العبادية ، القرآن الكريم .

Psychological recruitment stylistic For worship orders in the Holy Quran

Dr. Sabah Idan Hammoud

Mobile: 07709013654

Email: Ssaabbaahh75@gmail.com

College of Education- University of Maysan

Abstract :

Each discourse aims, in its style and statement, to achieve the objectives of its creator, and in all its levels it has the intention of influencing the recipient to act upon it, and raise the potential of those aims It moves the recipient soul which is a group ((the forces latent in the human body, which is a complex of good emotions and evil impulses, and stable instincts, tendencies, emotions and desires that drive this physical body in its behavior and directions)). And she needs different stimuli to act with it and direct it towards Murad al-Qasid, who wants to be directed at it.

Modern linguistic studies, especially stylistic research, have turned to psycho-linguistic research and the issuance of general laws to explain human behavior towards spoken linguistic phrases. The human soul needs, in its existence and at all its mental levels, internal stimuli that move it to patterns of actual or emotional behavior, which makes us adhere to the definition of the psychological connotation that was known as ((those features and signals that are reflected on the human soul, so that a specific response occurs in it, whether a) It was verbal or kinetic, voluntary or involuntary)) and the stylistics and coordination of the speech at the time of its creation and the place of its birth are important psychological influences. Therefore, this discourse should possess the stylistic ability to provoke

the emotions of the soul and direct them in specific paths, and employ them in knowing the behavioral pattern that should be adopted by its followers.

Key words: stylistic, psychological employment, orders of worship, the Holy Quran

المبحث الاول: التوظيف النفسي في أُسلوب الامر العبادي

اسلوب الامر في اللغة له مستويات عدة، أشبعتها كتب البلاغة والنحو تفصيلاً، ولعلّ اكثر من فصل بذلك هم الاصوليون ، لأنهم يَرَوْن انفسهم اكثر تماساً مع هذا الأسلوب، وقد فصلوا فيه كثيراً في مباحث الالفاظ، ولا يريد الباحث هنا ان يدخل في هذه المباحث المعمّقة ، ولكن يمكن الإفادة من التاكيد على أن الامر يفهم منه طلب القيام بالفعل من جهة أعلى من المأمور التي تفيد الوجوب غالباً. سواء بصورة مباشرة ام غير مباشرة.[12]

إن اكثر الافعال التي لها مصادر – على رأي من يذهب الى أصالة المصدر–[13] عندما يشتقُّ منها الامر؛ يكون من حروف مصدرها، فالكتابة مثلاً ، عندما نريد أن نأمر، او نطلب من شخص ما القيام بها، نستعمل الفعل الذي هو من مشتقاتها، ونقول له: (اكتب الدرس) ، وهذه سنّة مطّردة في انشاء الجملة الطلبية التي تدلّ على الامر، والملاحظ ان اسماء العبادات الخمس المعروفة، لم تكن اسماء جامدة، وإنما هي اسماء مشتقة، وأغلبها مسمّى بالمصدر، ولكن اللافت في توجيه القرآن لطلب القيام بهذه الافعال؛ لم تكن الأوامر مباشرة بالفعل العبادي بجميع أقسامه، ونعني بالمباشرة هنا: ان الافعال (صلوا، صوموا حجوا، زكوا) لم يكن لها حضور حقيقي في القاموس القرآني بمعناها التكليفي، وإن وجدت فلم تكن بالمعنى العبادي المطلوب، كما في قوله تعالى : ((إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً))[14] فإنها جاءت في خصوص الذكر الذي امرنا الله تعالى به في الصلاة على النبي، وهو من الأمور غير العبادية ؛ بل أن الصلاة المأمور بها في الفعل (صلوا)، جاءت بمعناها اللغوي وهو الدعاء . وحتى في النهي عن هذه العبادات، لم يتوجه حرف النهي الى الفعل العبادي بصورة مباشرة، بل تعدى اليه بفعل اخر، كما في :((يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى،،))[15] ، وفي قوله تعالى: ((فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ))[16] ،واذا وجد ذلك فهو ليس بالمعنى العبادي ، كما في قوله تعالى :((وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا..))[17] فهو هنا يريد الصلاة على الميت ، وهي في حقيقتها أيضاً لم تكن صلاة بالمعنى العبادي المعروف، وإنما هي دعاء، وهو المعنى اللغوي للصلاة. وكذلك يجري هذا في جميع

العبادات الاخرى، فلم نجد ان الامر بالزكاة كان بالفعل (زكوا) وإنما يأتي بوساطة الفعل(آتوا) والصوم والحج كذلك.

من هنا يتضح ان الصلاة بمعناها العبادي لم يُستعمل فعل الامر منها، ولا نُهي عن فعلها الصرفي(صلى) في حالة كونها عبادة ؛ بل يكون ذلك في افعال اخرى . وهذه الحقيقة القرآنية لها قصدّية من لدن مبدعها العظيم ، فالتعبير باقيموا الصلاة او أقم الصلاة ، وآتوا الزكاة وكتب عليكم الصيام ،، ولله على الناس حج البيت ، وغيرها من التراكيب التي شُرِّعت بها العبادات ؛ لها تأثيراتها النفسية الحسنة في توجيه المكلف نحو الفعل العبادي، بطريقة تجعله مهيئاً لاستماع الامر بصورة فيها من الطمأنينة ، اذ يتجسد الفعل العبادي بصورة جديدة امام المتلقي للامر، فقوله تعالى: ((إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي))[18] وفي قوله تعالى: ((وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ))[19] وفي غيرها من الايات التي تشعر بأن الصلاة شيء له وجود خارجي، يحتاج الى إقامة من حالة معينة الى حالة جديدة، وإيجادها بحالة جديدة تتناسب مع الذكر الذي هو مسببٌ لإقامتها ، فترتبط العبادة بوجود غيبي يتطلع اليه الانسان؛ ليقوى طموحه في تحقيق هذا الهدف، ويجري هذا النوع من الإعداد النفسي للمكلف في جميع العبادات الأخرى؛ لأنها شُرعت بهذه الطريقة اللافتة من دون إشعار بالتوهين للمأمور، أو اقصائه ، وهذا النوع من العرض للعبادة من شأنه أن يقوي العلاقة بين المبدع والمتلقي ((حيث يتناسب طردياً إدراك المعاني بينهما، فكلما كانت العلاقة إيجابية؛ كان القبول النفسي لقبول المعاني أكثر))[20] ؛ ولأن الله تعالى لم يرد هذا الفعل العبادي بحد ذاته مجرداً، وإنما المطلوب هو ما خلف هذا الفعل، فحركات الصلاة وألفاظها وأصواتها لم تكن مطلوبة لذاتها، وإنما هي تمثل الأيقونة او الشفرة التي توصل العبد الى مقام اخر، وهو مقام إقامة الصلاة (وأقيموا الصلاة)؛ لكي يبقى التواصل المحبب بين العبد وخالقه.

ونجد ذلك يظهر جلياً في بيان كيفية النهي عن التقرب الى هذا المقام للصلاة في بعض الحالات المحظورة والمنهيّ عنها ، كما في قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ))[21] مما يصوّر في ذهن السامع أن الصلاة شيء له حدود، فالقرب منها في حالة السكر – بغض النظر عن معناه – ممنوع، وحرمتها ظهرت من النهي عن التقرب لها لا النهي عنها ، فيرتفع مقام الصلاة في ذهن العابد، وهو من عوامل الحفاظ عليها ، والتأكيد على تفعيل الاقوال؛ فينبغي الحضور القلبي أثناء أقامتها. وكذا فيما يخصّ حالة التقرب من الصلاة على طهر تام ، سواء أكان هذا التطهير حقيقياً أم معنوياً، ولا ريب أن هذه الأمور فيها من البواعث النفسية لأستقبال الصلاة والتفاعل معها بصورة معينة. وهذا الاسلوب حقق وظيفته في تهيئة النفس المأمورة ، وبيّن درجات الاستجابة تجاه العمل العبادي.

وفي تشريع فريضة الصيام ايضاً لم يُأمر به بفعله المباشر، فلم يقل القرآن : (صوموا) بل جاء مفهوم الطلب بصيغة الخبر، ((يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ))[22] وهذا الأسلوب الخبري في التكليف يُشعر القاريء والمكلف بهدوء الطلب ولطافته، فالصوم فيه من المعاناة الجسدية والنفسية التي لا تخفى على من يمارسه، مما يتطلب من السلاسة والدعة في فرضه على مجتمع لم يتعوده من قبل؛ لذا احتاج هذا الأسلوب الذي ابتعد عن الامر المباشر، وتحول الى الطلب الخبري، ومن ثم الربط مع الماضي ، فإن هناك شيئاً كُتب على أناس من قبلكم فأنتم وهم فيه سواء ، فخطاب المؤمنين بصيغة البناء للفاعل وعدم بيان ذكره؛ فيه بُعدٌ نفسي مهم، يبتعد بالنفس الانسانية عن الشعور بالاحباط امام الأوامر الشديدة ، وكذا المساواة في طبيعة التكليف والمشاركة فيه من الامم السابقة؛ لها تبعات نفسية (كتب عليكم ... كما كتب على الذين من قبلكم) فهذا النوع من التكليف ليس عليكم وحدكم؛ بل سبقتكم فيه الامم السابقة ، وفي ذلك تهوين وتقليل من شدة العبادة من جهة ، وشعور بجذور الارتباط مع الآباء والاجداد الذين سبقوهم؛ لتأصيل الانتماء الى العمق الوراثي، الذي دائماً ما يؤكد عليه المعترضون الذين لا يريدون الإذعان الى الطاعة ((فقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ))[23] ، وفي قوله تعالى: ((فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ))[24] ، وفي قوله تعالى : ((قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ))[25] ، فربط العبادة والتكليف بعبادة الامم السابقة، له آثاره النفسية المهمة؛ إذ يجعل المكلف يتدبر في قيمة العبادة، ويقلل من الشعور بثقلها الأدائي، فالاهتمام بهذه العبادة ، والتنويه بها لأنها مشرّعة قبل الأسلام وهي تشرّع الآن للمسلمين، وهذا يعني إطّراد صلاحها ووفرة جزائها وقيمة ثوابها، مما يستنهض همم المكلفين لتلقي هذه العبادة فينفلعوا باتجاه المنافسة مع غيرهم؛ كي لا تسبقهم الامم السابقة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى قضية التهوين وعدم الاستثقال للصوم، فإن في اقتدائهم بغيرهم ؛ فيه من التأسي بتقبل ثقل العبادة ، ولاسيما عند من لم يكن إيمانه في مستوى قبول الجهود التي تبذل في مقابل القيام بهذه العبادة. فلم يقلْ: صوموا كما صامت الامم السابقة ، فهكذا أمر لا يؤدي الدلالة التي يؤديها اسلوب: كُتب عليكم، فخروج اسلوب الخبر الى دلالة الامر فيه من التحبب للمأمور به، وقد يفيد المسارعة الى إنجازه، كما ذهب الفخر الرازي الى أن التعبير عن الأمر بصيغة الخبر؛ يفيد تأكيد الأمر، إشعاراً بأنه مما يجب أن يتعلق بالمسارعة إلى امتثاله[26]. فتركيب(كُتب عليكم) يتمييز بلفت ذهني، يحّرر المتلقي من ثقل المأمور

به. وبعد هذا البيان الخفيف في فرض العبادة؛ يأتي قوله تعالى : ((شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَ الْفُرْقانِ)) [27] ، شرع المبدع الى بيان زمن الفريضة، وتحديده وتسميته، مع الشحذ النفسي لحدث نزول القرآن، الذي يقرن مع فريضة الصوم وصفاته الجميلة، وعلاقته بنزول القرآن الذي هو سبب الهداية . وبعد أن تتمكن العبادة في نفس المتلقي، ويقرُّ بوجودها ويسلّم بفوائدها، بعدها يمكنه أن يتقبل الامر بقوله: ((فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ))[28] ، وهذا الامر لا يخص اصل التشريع؛ بل هو متفرع عن ثبوته ، ومن ثم يبيّن النص الرخصة داخل هذه الشريعة الصعبة ، فيبدأ التخفيف عن جهات معينة بقوله: ((وَ مَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ))[29] ، فنلاحظ كيف ختم القرآن هذا التكليف برخصة للمريض والمسافر ومن ثم ربط الثواب والاجر به تعالى وما وفره للعباد من سبل الهداية التي هي من فيضه. ((فالقرآن في خطابه وتشريعاته يراعي الميول النفسية ويساير طبيعتها، ويتدرج في علاجها، وهذه سمة غالبة في التشريعات التي تم التدرج فيها)).[30]

وذلك الأسلوب نفسه يظهر في دعوة المكلفين الى الحج ، فلم يقل القرآن :حجوا البيت باستعمال الفعل المباشر، وإنما قال : ((وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ))[31]، وهذا الخطاب وإن كان موجهاً لأبراهيم عليه السلام؛ لكنه ينسحب التكليف الى الأمة التي هي امتداد لشريعة ابراهيم ، دعوة هادئة فيها ترويض نفسي رائع، فقد ألف الناس صوت الأذان ، وهو أيقونة الإعلام للصلاة التي فيها راحة نفسية واضحة، جسّدها قول الرسول (صلى الله عليه وآاله لمؤذنه) : يا بلال أرحنا بالصلاة،[32] أي عجل ما فيه راحة قلوبنا وقرة عيوننا؛ فالحج لما فيه من مشقة الجهد البدني والحاجة الى مؤونة السفر، ربما افرزته آية الإيجاب ((وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ))[33] ، فوجوبه مقرون بالاستطاعة بكل حيثياتها ، يلاحظ ان الواجب (حج البيت) ، قد تأخر في أسلوب الجملة، فهو ليس المقصود المباشر كعمل ؛ لذا جاء تقديم الجار والمجرور (لله)؛ لبيان ان المطلوب هو حق الله وطاعته أولاً ، وقد يتحقق هذا الامر بدون عملية السفر التي لا يجب القيام بها الا بتحقق الاستطاعة وتوفر السبل ، وحتى تفاصيل المناسك التي يجب تحققها، تُعرض بأسلوب مرن لا يخدش النفس، ولاسيما تلك النفس التي تشعر بثقل أداء الواجب، فجاء الطلب بأسلوب غالب لعمل المستحبات ((إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ))[34] . فصيغة (لا جناح) الغالب في استعمالاتها القرآنية أنها للاستحباب، والمعروف عند الفقهاء أنها

هنا جاءت للوجوب ؛ لأن السعي بين الصفا والمروة في الحج واجب،[35] فكأن هذه الاسماء تعامل معاملة الاسماء الجامدة التي لا يؤمر بالإتيان بها الا بوساطة فعل اخر من الافعال المطالَب بالتأثير عليها، والعجيب من ذلك كلّه أن الفقهاء والأصوليين استنتجوا وجوب هذه العبادات او استحبابها كفعل عبادي يُتقرب بها الى الله تعالى عن طريق الامر، فمثلا وجوب الصلاة ، استُنبط من قوله تعالى المتكرر: (أقيموا الصلاة ،او أقم الصلاة ،او فليقيموا الصلاة ... وهكذا) فالمأمور به حقيقة هو الإقامة وليس الصلاة ، ولكن الواجب الذي يكلّف بها العبد هو الصلاة ،، وحتى الجزاء يوجه الى من وصف بأنه مصلي (لم يك من المصلين) (فلا صدق ولا صلى).

كما نجد ان الاهتمام بالجانب النفسي مثلا هو الامر بالطهارة، التي هي من ملازمات العبادة، ولاسيما عند الصلاة والطواف، وقد ذكرت بعض الروايات ان الطهارة الجسدية مهمة في تهيئة النفس للدخول في العبادة، فضلا عن بعض الفوائد المعنوية، كإذهاب الغضب مثلا ، فلقد أخرج الإمام أحمد في مسنده، أنّ رجلاً دخل على عروة بن محمد، فكلّمه بكلام أغضبه، فلما أن غضب قام ثم عاد إلينا وقد توضأ، فقيل له لم فعلت ذلك؟ قال: حدثني أبي عن جدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: (إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)[36]. وقد أثبت العلم الحديث أن الوضوء (والاغتسال، أيضا) – في وجود الضوء – يساعد على سقوط فوتونات الضوء فوق زاد الماء، ويعمل على انتشار أيونات سالبة الشحنة، من جزئيات الماء المتناثرة في الهواء، وهذه الشحنات السالبة عبارة عن شحنات كهرومغناطيسية، وتؤثر في جسم المتوضىء أو (المغتسل) تأثيرا حسنا من الناحية الصحية، إذ تسبب الاسترخاء العضلي فتزيل أي توتر عصبي أو أي انفعال ناتج عن الغضب[37]. وتكون سبباً مهماً في الابتعاد عن كل الاعمال التي تسبب التوتر النفسي؛ من هنا يتجلى معنى ((اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ))[38].

المبحث الثاني: التوظيف النفسي في جماعية العبادات

إن الشعور بالوحدة في طريق الوصول عادة ما يضعّف نشاط الانسان في بلوغ الهدف، ويشعره ببعد المسافة، ولكن حين يرى بأنه يسير مع الجمع او مجموعة من الاخرين تشتد عزائمُهُ لمواصلة الطريق، ولاسيما اذا كان في العمل الموكول به أداؤه من المشقة البدنية او النفسية، فإقامة الصلاة في أوقات محددة مقسمة على خمسة أوقات من الليل والنهار ؛ فيه من الالتزام والقيود، ربما تضعّف عزيمة العبد، وتجعله متثاقلاً في التوجه لهذه العبادة؛ لذا كانت عملية التخاذل عن الصلاة من علامات النفاق ((إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا))[39] فأن

التكاسل عن الصلاة صفة ملازمة للأنسان الذي ضعف إيمانه، من هنا تجد أن النص القرآني دأب على إيجاد محفزات نفسية للمكلف، منها توجيه الاوامر للجماعة وليس للفرد، كما في قوله تعالى: ((وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِعِينَ))[40] فالاستعانة بالصلاة لأنها تحمل شحنات نفسية عديدة؛ لتوطيد العلاقة بين العبد وخالقه تقوي من عزيمته، وكذا الصبر الذي هو الصيام كما ورد في تفسير معناه عند بعض المفسرين [41]، فالصيام في شهر كامل وفي ايام الصيف والشتاء ايضا فيه من الجهد الجسدي والالتزام الروحي ما يحتاج الى صبر ومجاهدة؛ يؤديان الى شعور بقيمة هذا العمل، وكذلك الحج وما فيه من مشقة السفر في أوقات مختلفة من السنة والانفاق الذي يحتاجه، والزكاة وتبعاتها النفسية في إعطاء الأموال التي يشعر الانسان انها ملكه وجهده .

إن الغرض الحقيقي من الصلاة يتحقق على خير وجه عندما تكون الصلاة جماعة، فروح كل صلاة روح اجتماعية، حتى الراهب يعتزل جماعة الناس لعله يوفق في محرابه إلى محبة الله، لذا فان الرهبنة التي بمعنى الوحدة ليست محببة في الاسلام، وقد ذمها القرآن بقوله: ((وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ))[42] ومن معاني الرهبانية الابتعاد عن الجماعة ، كما عرفها أحدهم :((العبادة يظهر فيها معنى الرهبة إما في لبسه أو انفراده عن الجماعة أو غير ذلك من الأمور التي يظهر فيها نسك صاحبها))[43]، في حين أن الجماعة، والطائفة المتعبدة هم أناس اجتمعوا معا يحييهم أمل واحد ، فيجمعون أمرهم على هدف مقرر، ويفتحون أعماق أنفسهم لتلبية باعث واحد. وإنها لحقيقة سيكولوجية أن الاجتماع ينمّي قوى الإدراك عند الرجل العادي ويعمّق شعوره، ويحرك إرادته إلى درجة لا يعرفها في عزلته ووحدته، وعلى هذا فإن صلاة الجماعة في الإسلام – إلى جانب مالها من قيمة فكرية – تشير إلى الأمل في تحقيق الوحدة الضرورية للبشر كحقيقة من حقائق الحياة، وذلك بالقضاء على جميع الفوارق التي تميز بين إنسان وأخر.

والزكاة أيضاً تُعد علاجاً عملياً بعيد الغاية لضعف النفس وتحصينها من أدواء الشح والأثرة وعبادة المال. هذا كله يحتاج الى توطين النفس الانسانية على تحمل هذه المشقات فهي بحاجة الى التشويق والوعد والمشاركة ، فلا يشعر المكلف بالعبادة انه يسير وحيداً في طريق التكليف، فمعه غيره يقوم بالفعل نفسه فيشعر الجميع بوحدة العناء تجاه الفعل العبادي، فيتحول العناء الفردي الى لذة في إطار المجموعة، (مجموعة العبادة) فالصلاة مثلا عمل فردي؛ يحتاج الى وقت وأفعال تتراوح بين القيام والقراءة والركوع والسجود، ويقيناً ان تكرار هذا العمل بقالب أدائي واحد ، يصيب الفرد بالملل والكسل، وقد لاحظ الخالق هذ النوع من الاحباط عند الذين لم ينسجموا مع الاوامر فوصف المنافقين في قوله: ((إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ

وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا))[44] ، فاحتاجت الى نوعين من الإثارة النفسية ،اثارة الحضور القلبي واثارة الخطاب الجماعي ، فلم يكن الخطاب موجهاً للفرد في الأوامر القرآنية ؛ بل نجد الأوامر تأتي بصيغة الخطاب الى الجماعة (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة،كتب عليكم الصيام ، ولله على الناس) وتجلى ذلك ايضاً في فعل القراءة لسورة الفاتحة ، الواجب في كل صلاة مرتين، ولو نظرنا الى جماعية الخطاب الذي اكتنف ضمائر السورة؛ لم نجد ضمير يتكلم عن المفرد الا ضمير المخاطب (المعبود) ، فبعد ايات الحمد والربوبية والرحمة بقسميها- الرحيمية والرحمانية- والمالكية تحدث الانتقالة الى ضمير النصب المتقدم وجوبا (إياك) مع ضمير الجماعة المستتر وجوبا في (نعبد) و(نستعين) ، ومن ثم ظهور ضمير الجماعة في (اهدنا) ، وهذا التسلسل من العبادة الجماعية والاستعانة وطلب الهداية الى صراط الذين أنعمت عليهم، وهم جماعة الأنبياء والصديقين والشهداء((وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً))[45] و في قوله تعالى : ((أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا))[46]. فتحقق الطلب من الجماعة في الانضمام الى جماعة أخرى ، عرفت بقربها من الله تعالى ،والخروج من جماعات المغضوب عليهم والضالين، وهذا يعطي بعدا نفسياً للمكلف بعدم الشعور بالوحدة في طريق السير الى الله ، فالسير الجمعي هيمن على سياقات النص العبادي ، فأداء هذا العمل جماعة سيكون له الأثر النفسي الأكبر، اذا كان قارئ هذه الآيات شخصاً واحداً في جماعة منصتين لهذه الدعوات التي علّمها الخالق لعباده.

ومن هنا يبرز مستوى الامر بإقامة الصلاة جماعةً، وتحبيب هذا الامر للمخاطبين ((وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ))[47]. وفي قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ))[48] ، فيلاحظ أن الخطاب دائماً موجه الى الجماعة، ويؤكد على وجوبها عند من يرى أن صلاة الجمعة واجبة.

ولا شك ان الحج ايضاً من الاعمال الموسمية الشاقة، التي تتطلب نوعين من الإنفاق، الإنفاق المادي الذي تتحقق به الاستطاعة الفردية ، والانفاق البدني والجهد الذي تتطلبه حركيّة العبادة وما فيها من التزامات واجبة، ابتداء من الإحرام والممنوعات التي ترافقه، مرورا بالوقوف في عرصات عرفات، والمبيت في منى والمناسك الاخرى، كالطواف، والسعي ، وغيرها، وهذه الاعمال تحتاج من الجهد العضلي والنفسي، لا تخفف من شدته الا الوجود الجمعي من المشاركين في هذه العبادة ، فنجد ان الخطاب في التكليف الذي يخص هذه

العبادة يتكلم بصيغة الجمع وَ ((أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ))[49] وقوله تعالى : ((وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ))[50] ، كلها خطابات الى الجماعة، وليس فيها أي خطاب موجه للفرد، وهذا أيضا نلمسه بوضوح في تكليف الناس بأداء وظيفة الصيام، فالخطاب توجه الى جماعة المسلمين ،فلم يكن التكليف لشخص النبي مثلاً ، وإنما يبدأ التشريع بفعل الصيام (كُتب عليكم) انتم جميعا، وربط هذا أيضا بالأمم السابقة ، فعناء الصوم مشترك (كما كتب على الذين من قبلكم) ثم تفصيل نوع الصوم وكيفيته في قوله : (كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) في إطار اباحة الاكل والشرب في إطار الجماعة ثم في قوله تعالى: (وأتموا الصيام الى الليل) . فجميع العبادات المأمور بها على وجه الوجوب أو الاستحباب تتأكد فيها صفة الجمع الذي يُعد من المنشطات النفسية لكسر طريق الوحدة الذي لا يطيقه الانسان بطبعه وفطرته، وهو اسلوب حافظ عليه النص القرآني في جميع محاور التكليف التي تظهر للمتدبر في صياغات النص النفسية.

المبحث الثالث: التوظيف النفسي لمساحة الزمن العبادي

الزمن طبيعة سيالة متحركة، وهو أنات متصرمة تقاس بالثواني والدقائق والساعات والأيام والشهور والسنوات، وتختلف الأمم في اتخاذ انطلاقاتها الحسابية الآتية في فترات متباينة تبعاً لاختلاف المناسبات والأعياد والتواريخ المهمة في حياتها، وكل أمة تقتطع حقبة زمنية من هذه الطبيعة السيالة، وتجعلها منطلقاً لبداية تاريخها[51]؛ لذا لا غرابة حين نجد من يذهب الى أن مفهوم الزمن يُعدّ معقّداً، لم يكن بالامكان الوصول الى حقيقته، ولكّنه في معناه البسيط الذي ينفعنا في مقامنا هذا؛ نتفق مع من يرى أن الزمن ناشئ من دوران الكرة الارضية حول محورها، وعلى مدار معين مرتبطة فيهما بالشمس على مدار معين، فيتولّد عن ذلك نوعان من الزمان: المواسم أو الفصول التي تقسم العام على اربعة اقسام ، والثاني الليل والنهار المتعاقبان، واجزائهما من فجر وصباح وزوال وغروب ومساء وعشاء.[52]

و كل هذه الازمنة لم تغب عن علاقتها بالانسان وتنظيم حياته اليومية، ويبقى للحضور الزمني اهمية ضرورية في جميع انواع البلاغة والادب، ولا يمكن عزله عن السياق العام. وخاصة في مدونات الخطابة

والابداع فهو يتفاعل كعنصر اساسي ومؤثر في العملية السردية بصفته المباشرة وغير المباشرة، والملاحظ ان القرآن الكريم وهو رمز البلاغة ومؤسسها، قد أكد على ضرورة اختيار زمن بعينه لجميع العبادات، كالحج مثلا، والصيام، وكذلك الصلاة والزكاة؛ لأن ارتباط الانسان بالزمان وحركته من الإثارات المهمة في توجيه انفعالاته الإيجابية، وتوطين النفس للفعل ،فقد ادرك الإنسان مبكرًا، أنَّ الزمن هو إطار وجوده ، وأنَّه يشكِّل في ماضيه و حاضره ومستقبله كُلاً مسرفًا في حقيقته لا يمكن دحضه..[53]

فَلَو نظرنا الى الآيات التي فيها تحديد الزمن للعبادات المختلفة لم تهمل الجانب السايمولجي لاختيار المفردات التي اكتنزت إيحاءات نفسية مهمة، يرتبط بها الانسان مع حركة الزمن المرتبطة بحركة الشمس ، فيلاحظ بشدة أن فرض الصلاة ارتبط بحركة الزمن بوضوح، وأنها عملٌ مؤقت، له زمنه الخاص ، لا يمكن تقديمها عليه ، ويكره تأخيرها عنه إلا لضرورة ؛ لذا نجد أن الانضباط أمام التوقيت اقترن بصفة الايمان ((فأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا)) [54]وهذا التوقيت ظهر جلياً في مواطن عديدة ، حرص النص على تقديمها في مناسبات مختلفة تتناسب والسياق الذي قيلت فيه، ويلاحظ تطابق في بعض الاساليب، كما أن هناك تقابل يقتضيه مقام التكليف؛ ليتحرك المكلف في ضوئه، ويمكن أن يلاحظ ذلك في تلك البيانات النصية المرتبطة بحركة الزمن .

1–في قوله تعالى: ((أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً))[55] ، فالملاحظ ان تقسيم أوقات الصلاة هنا بدأ من زمن اسماه القرآن(دلوك الشمس) وهو وقت زوال الشمس عن محور السماء الى جهة الغروب، وقت صلاة الظهر عند أكثرهم[56] وقد وضع له ابن العربي حيّزا زمانياً بقوله: ((ان الدلوك هو الميل وله أول عندنا وهو الزوال وآخر وهو الغروب))[57] ، وهذا يعني أنه يشمل في مساحته الزمنية صلاتي الظهر والعصر، ثم الزمن الاخر وهو غسق الليل ، وكلمة (غسق) مصدر الفعل الثلاثيّ غَسَقَ: يَغسِق الليل باب ضرب، أي اشتدّت ظلمته، وغَسَقُ الليل : ظلمته ، وقيل أَول ظلمته ، وقيل غَسَقُه إذا غاب الشفق[58]، وهو عندهم وقت صلاة المغرب والعشاء59. و عليه فالآية تستغرق مساحة من الوقت ما بين زوال الشمس و منتصف الليل، و الواقع في هذا المقدار من الوقت من الفرائض اليومية أربع صلوات الظهر و العصر و المغرب و العشاء الآخرة. و بانضمام صلاة الصبح المدلول عليها بقوله: ((وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ)) إليها تتم الصلوات الخمس اليومية. وهو ما يؤيده قول ابن عطية الاندلسي : ((فقال ابن عمر وابن عباس وأبو بردة والحسن والجمهور دلوك الشمس زوالها والإشارة إلى الظهر والعصر و(غسق الليل) أشير به إلى المغرب والعشاء (وقرآن الفجر)أريد به صلاة الصبح فالآية على هذا تعم جميع الصلوات))[60].

فالتوقف عند تقسيم الزمن في اليوم الواحد للعبادة اليومية؛ نجده محصوراً بين ثلاث محطات زمنية في جهة واحدة من النهار، وهي ما بعد الزوال، ثم وقتي: الليل والفجر ، اما الجهة الأكبر من النهار فلا يوجد فيها وقت للصلاة، وهي من طلوع الفجر الى الزوال ، وهذه المنطقة الزمنية مسخّرة للعمل وكسب القوت والمعاش ، لأنها تمثل اكتناز قوة الجسد بعد ان يكتفي من النوم والراحة ليواجه الحياة، فالإنسان في هذه المساحة الزمنية يكدح لكسب الرزق وقد لا يلتفت كثيرا للعبادة، أو أن نفسه منشغلة بواجب تكويني فرضه عليه وجوده وطبيعته التي يحتاج فيها الى اشباع غرائزه البدنية ، فتُركت هذه المساحة الزمنية بلا تكليف، وحتى لا يبتعد الانسان كثيرا عن ذكر ربه في وقت راحته البدنية في الزوال وهو وقت الظهر، يأته طلب إقامة الصلاة بأسلوب معهود (أقم الصلاة لدلوك الشمس) فهنا ارتباط الأمر بحركة الشمس التي تُلازم حركة الزمن، فاستعمال اللام هنا فيه نكتة اسلوبية مهمة وهي تعني : الالصاق بوقت الدلوك ؛ وهو زمن محصور لا يمكن ان يُسبق ؛ لأن الدلوك هو: الميل في اللغة، فأول الدلوك هو الزوال، وآخره هو الغروب، ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكاً؛ لأنها في حالة ميل؛ فأمر الله تعالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك[61] . ومن ثم الاشارة الى الوقت اللاحق بحرف الجر (الى)، وهو يعني بداية دخول وقت العشائين. فهذه الاوقات لابد أن تتمتع بقيم نفسية تنفع المتلقي في التوجّه والشوق اليها ؛ لذا أن وصف قران الفجر بأنه كان مشهودا: ((إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً)) بأنه يشهده ملائكة الليل و ملائكة النهار[62]، هذا كله جاء باسلوب في تحبب للنفس تجاه العبادة المفروضة بالفعل (أقم) . وهذا يدلّ على ان الامر هنا جاء في سياق بيان أهمية الالتزام باوقات الصلاة، والقيمة النفسية في هذا الوقت هو الشهود الحاضرين .

2- وقد تكرر هذا الطلب الرقيق مقروناً بالزمان في نص آخر، وهو قوله تعالى: ((وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ))[63]، والاية واضحة تماماً في بيان اوقات الصلاة في اليوم بقسميه الليل والنهار، وقد افاض المفسرون في بيان دلالاتها، وفي النتيجة هم مجمعون على أنها أوقات الصلاة الخمسة[64] ، ولكن المهمَّ في ذلك هو التعقيب الذي جاء بعد ذكر الوقت المرتبط بالاثار المترتبة على إقامة الصلاة في أوقاتها ، ومالقيمة النفسية التي تترتب على الالتزام باوقات الصلاة ، فهي حسنات لها القدرة على محو السيئات، فقد ذهب جمع من المفسرين الى أن المقصود بالحسنات هنا هي الصلوات الخمس[65] ، وفي هذا التعقيب إثارة نفسية تجاه الترغيب في العبادة، فجاء بنمطٍ جديد شابه السابق؛ ولكنه ذكر محفزات نفسية جديدة للقبول بالعبادة والتفاعل معها.

3- وفي نص آخر تعرض فيه هذه الأوقات باسلوب جديد بعيد عن الأمرالمباشر , إنما أُستعمل المصدر المتضمن معنى الفعل، في قوله تعالى : ((فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ))[66] ، فـ (سبحان) في دلالتها الوظيفية مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره يتضّح من سياق الاية ،أنه فعل أمر(سبحوا سبحان) ومرة أخرى يقترن الطلب اللطيف الذي اختفت فيه ايقونة الأمر المباشر بالزمن في قوله: (تمسون وتصبحون) ومثلها قوله: (وله الحمد) أي : أحمدوا ربكم (عشياً وحين تظهرون)، أسلوب فيه من الترغيب النفسي تظهره رقة الطلب الذي أبتعد عن الالزام المباشر.

فأنّ ارتباط الانسان بحركة الزمن ونظام تعاقب الليل والنهار له مداليل نفسية مهمة في ترتيب حياته وتنظيم علاقاته فهذه الأوامر تجعله منسجماً مع هذه التقسيمات الزمنية لأوقات الصلاة ، فغالباً ما يكون بعد العصر او بعد العشاء او بعد صلاة الفجر مواعيدنا للأعمال الاخرى، وهي مواعيد تبعث على الطمأنينة والاناة في حركة الانسان اليومية تجاه افعاله، فهو مرتبط بنظام كوني محمي من الخالق للوجود . كذلك الزمان الاسبوعي في إقامة صلاة أسبوعية هي صلاة الجمعة، وقد افرد لها القرآن الكريم سورة كاملة سُميت سورة الجمعة؛ لوجود مفردة الجمعة التي انتظمت في الامر بالسعي لإقامة هذه الصلاة التي يشترط في صحتها ان تكون جماعة فحسب، وهو ايضا مستنبط من صيغة الامر الموجه ((يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ))[67]. وهكذا نرى ان تحديد زمن الصلاة في يوم من ايام الاسبوع يعتبر نظاماً رمزياً لتنظيم النفس تجاه هذا اليوم ، فالأمر بالسعي لذكر الله، وترك ايّ عملٍ اخرٍ، ولا سيما البيع فيه من القيم النفسية للمؤمن؛ لذلك نجد ان الخطاب اختصّ الله به الذين آمنوا ، وقد يظنّ بعضُهم إن هذا يكون حرباً على الرزق أليومي، لكن تنساب الآيات بذكر حافزٍ اخر، وهو انه عندما ينتهي وقت الصلاة يمكن للعباد ان يطلبوا رزقهم ((فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ))، فهذا نظام زمني اخر ارتبط بالأسبوع .

وايضا على المستوى الزمني نجد العبادة السنوية في صيام شهر رمضان، وذلك في تنظيم سنوي لحياة الانسان ، وما لهذه العبادة من تبعات صحية ونفسية، لا تخفى على العلم الطبّي اليوم ، وتسمية هذا الشهر باسمه دون غيره من الشهور، فيه بعد غيبي يرتبط بأحداث معينة وقعت في هذا الزمن ((شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَ الْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَ مَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ))[68]، فارتبط تحديد هذا الزمن بحدث اخر مهم في حياة المسلمين فضلا على

حياة البشر اجمع وهو نزول القرآن الكريم، الذي يعتبر ثورة نصية هائلة في التشريع والتنظيم والتقعيد الاخلاقي والهداية ، ثم يأتي الامر بتهيئة نفسية رائعة، وذلك بعد تحديد الزمن وبيان أهميته من جهة ظرفيته لنزول القرآن ، وهو ما يحفز الناس على الاهتمام بهذا الزمن والانتظار له بنوع من الشغف والشوق لربيع القلوب ولا سيما ان فيه ليلة وصفت بأنها خير من الف شهر ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه،، فليس على المسافر صوم، وتبدا عمليات الترخيص للمريض والعاجز، فقدم النص وصفا لشهر رمضان وما فيه من القيم النفسية وربطه بالقرآن الكريم ، ومن ثم بدأت عملية تقسيم الزمن الذي يظهر أنه مفتوح على كل العام ، فلم يكن وجوبه الا في حالة واحدة هي حالة الحضور وعدم المرض وكان هذا واضحاً أن التكليف بالصيام يجب أن لا يقترن بالمشقة في السفر أو عند المعاناة في المرض وتوظيف ذلك في قوله: ((يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ))، فلا يشعر قارئ النص إلا بالشوق الى أداء هذه العبادة التي عرضت باسلوب لطيف ومحبب.

أما على مستوى تحديد وقت الصيام في اليوم يبدأ القرآن بعرض المباح الذي يكثر التعب من تركه وهي الاكل والشرب ((كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ)) ، فهذا الاسلوب الرائع في عرض العبادة يذكر مساحة المباحات من أكل وشرب وحتى أتيان النساء، وبعدها يبين بداية الصيام ((حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)) ، فلا ترى أي طلب بفعلٍ مباشر؛ بل باظهار الظرف (حتى يتبين)، ومن ثم تتنتقل الاية الى بيان آخر الوقت في قوله تعالى :((ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ)) ، لم يقل القرآن صوموا الى الليل، فالفعل العبادي في تحديد زمن الصوم له حقيقة مغايرة عن المعنى اللغوي الذي وضعت له المفردة، فهو لم يتمكن بذاته الوصول الى الحقيقة المرادة من العبادة الا بمعونة فعلٍ اخر، فاحتاج الى الفعل(أتموا)؛ لكي تكتمل الحقيقة المرادة من عبادة الصيام، وهنا تكمن قوة النكتة الاسلوبية في مسألة تعدي الفعل الى الزمن (الليل) بحرف الجر (الى) احتاجت الى دلالة الإتمام المكتنزة في قوله: أتموا ، وفيه نرى ان (الى) التي تعني انتهاء الغاية ودخولها في المغيى؛ تعني امتداد زمن الصيام الى الليل، فاتمام الصيام ، ليس المراد هو الامتناع عن الاكل والشرب وحسب؛ بل هو إتمام شرائط الصوم من تقوى وامتناع عن منافيات الصوم، فلّما كان الاكل والشرب هو المطلوب من العبد اثناء النهار، قال القرآن: كلوا واشربوا ، في حين نجد أن في الترخيص عن الصوم الذي يكون زمنه الليل المفهوم من الآية السابقة ، ان الليل ليس فيه صيام؛ بل هو بداية زمن الاكل والشرب، وهي الممنوعات الظاهرة من الصوم، فجاء الترخيص عن العبادة باستعمال الأفعال بصورة مباشرة ، يقول : (كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الاسود من الفجر) فاستعمل أفعال الامر بصورة مباشرة ؛لانها أفعال

لازمة تعدت الى ظرفها بالحرف حتى الذي يعني انتهاء الغاية المشتركة مع الحرف الى ، ولكن الغاية هنا لا تدخل قي المغيى.

وهكذا نجد أن العبادات بصورها المختلفة، تقترن بزمن خاص له حدوده وخصوصياته، حتى يرتقي الى أن يتجاوز مساحته الحقيقة؛ ليكون مساوياً أو متجاوزاً الى ما هو أوسع منها بكثير ، كما في ليلة القدر التي وسّعها النص في الفضل والخير ، فهي ((خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ))[69] ، وبعض الايام والليالي، صارت موضوعاً للقسم القراني، كما في قوله تعالى: ((والْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ))[70] ، ونكتفي بهذا التعليق الذي يبيّن أهمية هذه الليالي في النص القرآني ((ولهذا أقسم بعده ، بالليالي العشر ، وهي على الصحيح : ليالي عشر رمضان ، أو عشر ذي الحجة ، فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة ، ويقع فيها من العبادات والقربات ، ما لا يقع في غيرها . وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر ، التي هي خير من ألف شهر ، وفي نهارها ، صيام آخر رمضان الذي هو أحد أركان الإسلام العظام . وفي أيام عشر ذي الحجة ، الوقوف بعرفة ، الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة ، يحزن لها الشيطان ، فإنه ما رئي الشيطان أحقر ولا أدحر منه في يوم عرفة ، لما يرى من تنزل الأملاك والرحمة من الله على عباده . ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة))[71]. وبهذا قد نكون وفينا في جزء يسير من القيم النفسية التي أولاها المشرع للمتلقي للشريعة ، وكيف تساوقت هذ الاوامر وما يتعلق بها في تهيئة النفس الانسانية لتلقي هذه الاوامر بسعة صدر، بيان كيفية ربط هذه الاعمال بالجماعة التي هي من سمات النفس البشرية ، وقيمة ربط هذا العمل بالزمان وحركته.

الخاتمة والنتائج:

– ارتبط العنوان بالنص القرآني الخاص بالأوامر التي أصلت لتشريع العبادات، وقد تبين ان جميع العبادات لم يستعمل فيها الفعل المشتق منه المصدر او هي مصادر لم تأخذ منها افعالها التي تشير الى العبادة بصورة مباشرة.

– مصطلح التوظيف النفسي وإضافته الى الاسلوبية من متبنيات الباحث ، فلم يسبق– حسب اطلاع الباحث– أن استعمله غيره في الأبحاث اللغوية التي له علاقة بالعمل الاسلوبي، عسى ان يكون نقطة انطلاق جديدة في قراءة النصوص، وبيان اهتمام المبدع بمراعاة نفسية المتلقي.

– تكثيف الخطاب الجماعي في اسلوبية الترغيب لممارسة العبادة ، وأبعاده النفسية في المساعدة في التخفيف النفسي، والتقليل من الثقل في الشعور اثناء ممارسة العبادة بشكل فردي، فالأفعال جاءت مسندة الى ضمائر الجماعة ، فيشعر الفرد معها بالراحة النفسية؛ لأنه يشارك الاخرين العمل نفسه.

– ربط التكليف العبادي بحركة الزمن اليومي والأسبوعي والشهري وكذلك السنوي ، لتنظيم حياة الفرد اليومية والموسمية، وهو عامل نفسي وظفه النص القرآني لترتبط الامة بحركة الكون.

– كان النص العبادي الموجه لتآصيل العمل العبادي ،مبنياً بناء نفسياً محكماً، لا يتجاوز اماكنية المكلف ولا يتغافل عنها، بل راعى جميع ما يمكنه التخفيف من ثقل بعض العبادات لكي يهيأ الانسان في التفاعل معها والقبول بها.

الهوامش

[1] علم النفس الاسلامي ، د. محمود عبدالله محمد خوالدة: ، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الاردن 2004: 26
[2] ينظر: معايير تحليل الاسلوب، ريفارتر ، ترجمة د، حميد لحمداني: 24
[3] دروس في اللسانيات التطبيقية ، صالح بالعيد ، دار هومة للطابعة والنشر، الحزائر – بو زريعة ٢٠٠٣ ص ١٦-١٧
[4] التعبير القرآني والدلالة النفسية : 42
[5] ينظر الاسلام وعلم النفس،، د محمود البستاني: 7 - 8
[6] علم النفس الاسلامي ، د. محمود عبدالله محمد خوالدة:3
[7]– الصورة الفنية في المثل القرآني: 349
[8]– . ينظر: القراءة النفسية للنص الادبي العربي، الدكتور محمد عيسى ، مجلة جامعة دمشق–المجلد 19–العدد 1+2 – 2003 : 27
[9] جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني: 39
[10] الاسلام وعلم النفس : 7
[11] (الذاريات: 56).
[12] ينظر الاحكام للامدي 2 : 132
[13] ينظر: مسائل خلافية في النحو ، أبو البقاء العكبري ،ط 1، دار الشرق العربي ، بيروت-لبنان ، 1992،ص 74.)
[14] (٥٦: الأحزاب)
[15] النساء: 43
[16] البقرة : 185
[17] التوبة : 84
[18] (طه: 14)
[19] (البقرة 110)
[20] التعبير القرآني والدلالة النفسية : 63
[21] (النساء 43)
[22] (البقرة: 183)
[23] (المؤمنون :٢٤)
[24] (القصص ٣٦)
[25] هود:٨٧

[26] ظ: تفسير الرازي 6: 92
[27] البقرة: ١٨٥
[28] البقرة: ١٨٥
[29] البقرة: ١٨٥
[30] التعبير القرآني والدلالة النفسية : 133
[31] الحج 27
[32] ينظر مسند أحمد 5: 364
[33] (الحج: 97)
[34] (البقرة 158)
[35] ينظر مجمع البيان للطبرسي 1: 445 وينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 2 :182 وينظر دلالة المفردة القرآنية (لا جناح / انموذجا) أ د عبد الامير كاظم زاهد، بيت الحكمة ، بغداد .2006 م : (13- 19)
[36] مسند أحمد 4: 226
[37] ينظر:الصلاة الاسلامية في المنظور الطبي الحديث سليم عبد المالك، موقع في النت،
[38] العنكبوت : ٤٥
[39] (النساء: 142
[40] (البقرة:٤٥)
[41] ينظر فقه القرآن لقطب الدين الرواندي 1: 202
[42] الحديد : 27
[43] التبيان في تفسير القرآن 9: 536
[44] النساء: 142
[45] النساء:٦
[46] مريم:٥٨
[47] النساء : 102
[48] الجمعة: 9
[49] التوبة:٣
[50] البقرة ١٩٦
[51] ظ: سيكولوجيا التعامل بين الانسان والزمن ، حسن الهاشمي ، مجلة النبأ ، العدد ٧٢ لسنة ٢٠٠٤
[52] ينظر مبحث الزمان في الفكر الفلسفي الاسلامي، زينب عبد العزيز ، موقع الحوار المتمدن.
[53] ينظر: الإنسان والزمن .. مواجهة غير عادلة ، ماهر الشيال موقع البديل الالكتروني
[54] (النساء: 103)
[55] الاسراء :78
[56] ينظر معاني القرآن للنحاس 4: 181 وينظر مفاتح الغيب 21: 25 ، وينظر الدر المنثور4: 195
[57] احكام القرآن ابن العربي 2: 210
[58] ينظر لسان العرب 10: 288 مادة (غسق)
[59] ينظر أحكام القرآن للجصاص 2: 334
[60] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز3: 477 وينظر فتح القدير 2: 250
[61] المحرر الوجيز 3: 477
[62] ينظر مسند أحمد 2: 474 ، وينظر صحيح البخاري 5: 227
[63] هود : 114
[64] ينظر تفسير الرزي 18: 72
[65] ينظر :جامع البيان في تفسيسر القرآن للطبري 12: 171 وتفسير السمرقندي 2: 174
[66] (الروم :17 - 18)
[67] الجمعة :: 9
[68] البقرة: 185
[69] القدر : 3
[70] الفجر 1- 2
[71] تيسير الكريم الرحمن في كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي. : 922